سر التراب

إلى أخي الأوفى مصطفى الحكيم صديق العمر الذي طالما استنشدني هذه القصيدة كما كان يفعل كلما ضمنا مجلس بإنشاد فتاة أمية. حتى أصبحتُ أطالبُ بهما بقولهم «أسمعنا القصيدتين اللتين يحبهما أبو بشار»

هذا الترابُ.. وهذه الأشجارُ ... لله كم فيها لنا أسرارُ!
تتأملُ الأبصارُ سرَّ وجودها ... فتكاد تنكرُ ما ترى الأبصارُ
وتروح تستجلي البصائرُ أمرَه ... فإذا البصائرُ كالعيون تحارُ
تطأُ الترابَ، على المدى أقدامُنا ... فإذا به عبْرَ الفضاء غبارُ
لا حسَّ فيه، لا حياةَ، وإنه ... شيءٌ مهانٌ إن نَفَخْتَ يُثارُ
فإذا قذفتَ إليه بالبذرِ الذي ... قد كنتَ تحسبُ أنه أحجارُ
وبكته من كبدِ السماء عيونُها ... وروَتْ غليلَ فؤاده الأمطارُ
فتراه مثلَ الأم يحنو قلبُهُ ... فإذا البذورُ بفضله أشجارُ
وإذا الينابيعُ القفرُ يغدو جنةً ... تشدو على أفنانها الأطيارُ
آلافَ آلافٍ ترى أشكالَها ... وكما رأيت فكلُّهن جوارُ
﴿يسقى بماءٍ واحدٍ﴾ وتباينت ... في شكلِها.. وعطورها الأزهارُ
فإذا طعمتَ ثمارها كان الذي ... في أمرهِ تتحيّرُ الأفكارُ
الزهر يولد كلُّه في ساعة ... ولحكمة لثماره أعمارُ
يؤتي على مهلٍ أطايبه كما ... نهوى.. ونجني مثلما نختارُ
وتعيش كلُّ الكائنات بفضله ... لا حقدَ يمنعه.. ولا استكبارُ
وترى الأنام إذا توقف سِرُّهُ ... هلكوا وعم العالمين دمارُ
سرٌّ عجيبٌ في التراب وما أتى ... منه وما حفلت به الأدهارُ
ما زال عبر الدهر سرُّ ترابنا ... يُلقى على الأفهام منه ستارُ
يا رب ليس له، وليس لغيره ... ما كان لو كان منك يُدارُ
أنت الذي أودعتَ سرَّك في الثرى ... هيهات أن تُحصى لك الأسرارُ!